مدرسة الإسكندرية

في البدء كان الكلمة

للقديس باسيليوس رئيس أساقفة كبادوكية

القس لوقا يوسف رزق

إن لم تؤمنوا فلن تفهموا

العدد السابع - ٢٠١١

مجلة مدرسة الإسكندرية

عدد ٧

في البدء كان الكلمة

للقديس باسيليوس رئيس أساقفة كبادوكية

ترجمة: ريمون يوسف رزق

في البدء كان الكلمة*

للقديس باسيليوس رئيس أساقفة كبادوكيَّة

ترجمة ريمون يوسف رزق

مترجم بالجمعية اليونانية بالقاهرة

Raymond_Y@alexandriaschool.org

١. إن كل كلمة مِنْ كلمات الأناجيل هي أبلغ بكثير [في الوضوح][1] مِنْ تعاليم الروح القدس الأخرى [في العهد القديم]، لأن بتلك كلَّمنا الربُّ بواسطة عبيده الأنبياء، أما في الأناجيل فقد كلَّمنا بذاته. ويُعتبر يوحنا الإنجيلي، ابن الرعد[2]، هو أجهر صوت بين البشائر الإنجيلية، فقد تكلَّم عن أمورٍ تفوق كل سمعٍ، وتسمو على كل إدراك، وهو الذي سمعنا من مقدمة إنجيله الذي قُرِئ منذ لحظات: «في البدء كان **الكلمة**، و**الكلمة** كان عند الله، وكان **الكلمة** الله» (يو١: ١). عرفت أن الكثير ممن هم غرباء عن التعليم الحقيقي وممن يتفاخرون بالحكمة العالمية[3] [الوثنيَّة]، قد أُعجبوا [بهذه الكلمات] وتجاسروا أن يمزجوها بتعاليمهم. إن الشيطان سارق، وهو الذي يعمِّم تعاليمنا بين أعوانه[4]. فإن كانت الحكمة الجسديَّة قد أُعجبت بقوة بتلك الكلمات إلى

---

* تمت الترجمة عن النص اليوناني الأصلي المحقَّق والمنشور في سلسلة آباء الكنيسة الذين كتبوا باليونانيَّة ΕΠΕ والتي تصدرها دار النشر «Το Βυζαντίον» بتسالونيكي- اليونان، سنة ١٩٧٣، المجلد رقم ٧، ص ٤٢-٥٧. وهذا النص بعينه منشور أيضًا في مجموعة «باترولوجيا جريكا» PG 31, 472-481.

[1] ما بين القوسين المربَّعين [ ] أُضيف على النص الأصلي لإيضاح المعنى. (المترجم)

[2] انظر مر٣: ١٧.

[3] هنا يقصد ق. باسيليوس تعاليم الفلسفة الخارجة عن دائرة تعاليم المسيح، ولكن ليس واضحًا أية تعاليم بالتحديد. ربما يقصد فلاسفة الأفلاطونية الحديثة. وهناك كُتَّاب كنسيون آخرون ممن يصفون الفلاسفة الوثنيين بأنهم سارقون لـــ «تعاليمنا»، ليس فقط تعاليم المسيح، بل أيضًا تعاليم العهد القديم.

فعلى سبيل المثال، انظر: مكسيموس المعترف، مقدمة في تعاليم القديس ديونسيوس، ب.ج. ٤، عامود ٢١-٢٤أ.

ولمزيد منْ التفاصيل عن مفهوم «الحكمة الخارجية» «Η θύραθεν φιλοσοφία» عند القديس باسيليوس، انظر: ΘΩΜΑ Ν. ΖΗΣΗ, Ο Μέγας Βασίλειος και η Θύραθεν παιδεία, (Χολαργός: Σημάντρο, 1980).

[4] يرى ق. يوستينوس الشهيد أن الشيطان هو الذي نقل النبوءات العبرية إلى اليونانيين بعدما حرَّفها؛ يقول: "اعلم جيدًا يا تريفون، أن ما زيَّفه ذاك الذي يسمونه الشيطان في الأساطير التي يرويها اليونانيون، كما فعل مع السَّحرة المصريين والأنبياء الكذبة في أيام إيليا ... إلخ". الحوار مع تريفون ٦٩: ١ وما بعده.

هذا الحد، فماذا نفعل نحن تلاميذ الروح القدس، إذا ما سمعناها بغير اكتراث، واعتبرنا القوة الكامنة في معانيها كأنها شيء بسيط؟ ومَنْ هو مريض بعدم الاحساس إلى هذا الحد حتى لا يندهش مِنْ معانٍ في مثل هذا الجمال، ومِنْ عمق هذه التعاليم الفائقة الإدراك، ولا يشتهي إدراكها إدراكًا حقيقيًّا؟ ولكن الإعجاب بالمعاني الحسنة ليس بالأمر الصعب، بل أن نصل إلى الإدراك العميق لِما أُعجبنا به هو الأمر العسير، والصعب المنال. ما مِنْ أحد إلاَّ ويمتدح هذه الشمس المادية ويُعجب بعظمتها، وبسنائها، وبتناسق أشعتها، وبالضوء الذي ترسله. لكن إذا تجاسر أحد أن يثبِّت نظره إلى قرص الشمس، فإنه ـ من جهة ـ لن يبصر شيئًا مما يشتهيه، ومن جهة أخرى سيخسر دقة نظره.

يبدو لي أن ذهني سيجتاز ألمًا مثل هذا وهو يحاول أن يدقق في شرح المعنى الصحيح لهذه الكلمات: «**في البدء كان الكلمة**». مَنْ يُدرك كل الإدراك ماذا تعنيه كلمة «في البدء»؟ أي كلمات قوية يمكنها أن تعبِّر ـ كما يليق ـ عن هذا المفهوم؟ لمَّا شرع [يوحنا الإنجيلي] أن يسلمنا التعليم عن لاهوت ابن الله، لم يعطِ لحديثه بدءًا آخر غير بدء الكل[٥]. كان الروح القدس يعرف الذين سيهينون مجد الابن الوحيد، وكان يعرف مُسبقًا أولئك المزمعين أن يُقدِّموا لنا سفسطاتهم[٦] التي ابتدعوها لدمار سامعيها؛ [مثل قولهم]: "إذا وُلِدَ فإنه لم يكن كائنًا قبل"، "قبل أن يولد لم يكن كائنًا"، و"أخذ وجوده مِنْ العدم"[٧].

بمثل هذه الأقاويل تنطق الألسنة التي جعلها الكلام الخادع والمتعدِّد الوجوه[٨] مسنونة أكثر من أي سيف ذي حدين. فلكي لا يُسمح لأحد أن يتفوَّه

انظر: القديس يوستينوس، الحوار مع تريفون، تعريب الأب جورج نصور (الكسليك: جامعة الروح القدس، ٢٠٠٧)، ٢٤٨.

[٥] يقصد ق. باسيليوس أنه عندما شرع يوحنا اللاهوتي في الحديث ــ في بدء إنجيله ــ عن لاهوت الكلمة، لم يجد وصفًا أدق عمقًا مِنْ وصفه بأنه بدء كل الأشياء. (المترجم)

[٦] هنا يُشير ق. باسيليوس إلى الآريوسيين. (المترجم)

[٧] الترجمة الحرفية لهذه الجملة هي: «أخذ جوهره مما لا يوجد». (المترجم)

[٨] أي الكلام غير المحدد والذي يقبل معانٍ كثيرة واحتمالات عديدة. (المترجم)

بمثل هذا الكلام، سَبَقَ الروح القدس وقال بواسطة الإنجيل: «في البدء كان الكلمة».

إن حافظت على هذا القول، فلن تتكبَّد أي خطر مِنْ أولئك الذين يخترعون الشر الماكرين. وإذا قال [لك] ذاك [المخادع]: "إذا وُلِدَ فإنه لم يكن كائنًا قبل"، أجبه أنت قائلاً: «في البدء كان»، لكنه سيرد: "كيف كان قبل أن يولد؟" فلا تترك أنت فعل «كان» ولا تتخلَّ عن لفظة «في البدء»، لأننا لا ندرك ما هو منبع البدء، ولا نجد شيئًا خارج دائرة البدء[٩]. لا يخدعنك أحد بالمعاني الكثيرة التي للكلمة. فهناك الكثير مِنْ الأشياء التي لها بدايات في هذه الحياة، ولكن بدء الكل هو واحد وهو فوق كل البدايات. قال سفر الأمثال: «بدء الطريق الصالح» (أم١٦: ٧)[١٠]. ولكن بدء هذه الطريق إنما هو التحرك الأول الذي به نبدأ السفر، والذي به يمكن أن نجد استمراره؛ وأيضًا: «بدء الحكمة مخافة الربِّ» (مز١١١: ١٠)[١١]. لكن هناك ما يسبق هذا البدء. لأن بدء فهم الفنون هو تعلُّم عناصرها الأولى. لذلك فعنصر الحكمة الأول هو مخافة الرب؛ ولكن هناك ما يسبق هذا البدء، أعني تأسيس[١٢] نفْس الإنسان الذي لم يتعلَّم الحكمة بعد، ولا قَبلَ مخافة الربِّ. وكذلك تُسمَّى المراكز السياسية والسلطات العليا «رئاسات أو بدايات αἱ Ἀρχαὶ»، لكن هذه البدايات هي بداياتٌ لبعضها، وكل منها لغيرها. فبدء الخط هو النقطة، وبدء أي شكل هو الخط، وبدء الجسم هو الوجه الظاهر [أي السطح]، وبدايات الكلام المؤلَّف هي عناصره الأولى [أي الحروف].

٢ـ البدء «ἡ ἀρχή» [الذي نتكلَّم عنه] ليس مِنْ نوع هذه البدايات؛ لأنه غير مرتبط بشيء، ولا يخضع لشيء، ولا نتصوَّره مع غيره. بل هو بدء حر لا يسوده أحد، غير مرتبط بعلاقة مع أي شيء آخر، لا يتجاوزه العقل ولا يمكن

---

[٩] هذا فكر فلسفي يحتاج إلى شرح: فلأن جميع الأشياء مغمورة في الزمن ولا يوجد شيء خارج الزمن، ولأن الزمن نفسه يستمد وجوده مِنْ «البدء»، لذلك لا يوجد شيء إلا وينتمي إلى «البدء». (المترجم)

[١٠] هذه الآية موجودة في الترجمة السبعينية فقط. (المترجم)

[١١] انظر أم١: ٧.

[١٢] للكلمة اليونانية «κατάστασις» معانٍ أخرى وهي: إقامة، تثبيت، ترسيخ، توطيد. (المترجم)

للأفكار أن تتخطاه ولا أن تكشف ما وراءه. لأنك إن تجاسرتَ وحاولتَ بخيالك أن تسبق هذا البدء، ستجده يسبقك ويستقبل أفكارك كسابق لها. دَعْ عقلك يركض مهما أراد، ودعه يتجاوز نفسه إلى أعلى،فتجده بعد ذلك قد ضلّ في ربوات من الضلالات، وسار في فراغ، وعاد إلى ذاته مجددًا لأنه عَجَزَ عن جعل هذا البدء تحت إدراكه. لهذا، فالبدء دائمًا ما يبقى خارج المدركات وفوقها[١٣].

«في البدء كان **الكلمة**». يا للعجب! كيف تترابط الكلمتان ببعضهما البعض بالمعنى نفسه؛ ف «كان» يعني تمامًا «في البدء»[١٤]. أين المُجدِّف؟ أين اللسان المحارب للمسيح والقائل: "إن هناك زمانًا لم يكن فيه [الابن] موجودًا". أصغِ إلى الإنجيل: «في البدء كان». فإذا كان [**الكلمة**] في البدء، ففي أي وقت لم يكن موجودًا؟ أأتأوَّه لعدم تقواهم، أم أشمئز مِنْ جهلهم [وهم يقولون]: "قبل أن يولد لم يكن كائنًا؟" أتعرف متى وُلِدَ حتى تُضيف إلى الزمن كلمة "قبل"؟ فإن "قبل" ظرف زمان يضع شيئًا قبل شيء آخر حسب القِدَمْ. كيف يكون مِنْ المعقول أن نُخضع ميلاد خالق الزمان إلى تعابير زمنية؟ فإنه في البدء كان. إذا لم تبتعد عن قول «كان»، فإنك لن تسمح بدخول أي تجديف خبيث. لأنه، كما أن البحَّارين لا يهتمون بالأمواج عندما يتثبتون على مرسائَيْن، كذلك أنت إذا قُدتَ نفسك إلى الميناء بيقين هذه الكلمات، ستسخر من هذا الاضطراب الشرير الناتج من الأرواح الشريرة، والتي تُزعزع إيمان الكثيرين.

٣. إن عقلنا يتساءل: مَنْ «كان في البدء»؟ فيجيب: «**الكلمة**»؛ أيّة كلمة؟ أهي مِنْ الكلام البشري، أم مِنْ الكلام الملائكي؟ لأن بولس الرسول قد ألمح لنا بأن للملائكة لغةً خاصة، إذ قال: «إن كنتُ أتكلَّم بألسنة الناس والملائكة» (١كو١٣: ١). ولكن، إن للكلمة معنيَيْن: فهناك كلمة يُنطق بها بالصوت وتنحل في الهواء بعد التلفظ بها. والأخرى هى الكلمة الداخلية الكامنة في قلوبنا. هذه الكلمة معنوية، أما الأولى فلفظية. انتبه لئلا تخدعك مرادفات

---

[١٣] يؤكد ق. باسيليوس، في هذه الفقرة، أن عقل الإنسان لا يقدر أن يُدرك هذا البدء، لأن الأخير خارج كل المدركات وفوقها. (المترجم).

[١٤] استخدم الإنجيلي الفعل «كان» ليعبِّر تمامًا عن زمن ولادة الكلمة الأزلي مِنْ الآب وهو «في البدء» ــ أي قبل كل الأشياء ــ وليرد مسبقًا على القائلين بإن الكلمة لم يكن له زمن وُلِدَ فيه أو كان كائنًا فيه. (المترجم)

الكلمة. فكيف يمكن أن تكون كلمة الإنسان في البدء ما دام قد أخذ بدء خلقته هنا في الأرض؟ فقَبلْ الإنسان كانت الحيوانات المتوحشة، والبهائم، وكل الزحافات: البريَّة والمائيَّة، وطيور السماء، والنجوم، والشمس، والقمر، والزرع، والبذور، والأرض، والبحر، والسماء. إذن، لم تكن كلمة الإنسان ولا كلمة الملائكة موجودة في البدء. لأن الخليقة كلها هي لاحقة للدهر، إذ قد أخذت بدء وجودها مِنْ الخالق. وكذلك، الكلمة التي في القلب فهى أيضًا أحدث مِنْ كل معقول مِنْ المعقولات.

لكن افهم الكلمة كما يليق بالله. عندما حدَّثك [يوحنا] عن الابن الوحيد دعاه **الكلمة**. كذلك سيدعوه بعد قليل نورًا، وحياةً، وقيامةً؛ ولكن عندما تسمع كلمة "نور"، لا تفكِّر في النور الحسي الظاهر لعينيك، وعندما تسمع كلمة "حياة" لا تظن أنها الحياة العادية التي تحياها الحيوانات غير الناطقة. هكذا أيضًا عندما تسمع لفظة **الكلمة**، تحفَّظ مِنْ أن تنحدر بسبب ضعف عقلك إلى مفاهيم وضيعة وتافهة، بل ابحث عن معنى لفظة **الكلمة**. لماذا [دعاه] **الكلمة**؟ كي يوضح أنه من الفكر [الإلهي].

لماذا [دعاه] **الكلمة**؟ لأنه وُلِدَ بدون ألم. لماذا [دعاه] **الكلمة**؟ لأنه صورة الذي وَلَدَه، ولأنه يُظهره كلَّه في ذاته، ولأنه لم يُقتطع من الذي ولده، بل له الوجود الكامل في ذاته. كما أن كلمتنا تصوِّر تمامًا فكرنا. فما نفكِّر به في قلبنا هو ما نلفظه بالكلمة، وما قلناه هو صورة الفكر الكامن في القلب. لأنه مِنْ فضلة القلب يخرج الكلام[١٥]. قلبنا مثل نبع، والكلمة المنطوقة مثل جدول منساب من هذا النبع. فإن ما ينساب يماثل مصدره الذي كان محمولاً فيه، والظاهر يماثل مصدره المخفي.

قال، إذن، [يوحنا]: «**الكلمة**» ليشرح لك الولادة من الآب بدون ألم، وليوضح لك ـ لاهوتيًّا ـ الوجود الكامل للابن، وليبرهن على الاتحاد اللازمني بين الآب والابن. إن كلمتنا أيضًا هي وليدة عقلنا ومولودة مِنْ دون ألم، لأنها لا تُقطع،

[١٥] انظر مت١٢: ٣٤.

ولا تتجزَّأ، ولا تتدفَّق. لكن يبقى العقل كليًّا في ذات كيانه، وهو يلفظ الكلمة التامة الكاملة. والكلمة التي نتجت [من الفكر] تحوي في ذاتها كل قوة العقل الذي ولدها. فمن اللائق، إذن، أن نستنتج من لفظة الكلمة كل ما يخص التعليم اللاهوتي عن الابن الوحيد، أمَّا ما تجده غير ملائم وغير مناسب فاتركه وتخطاه. «في البدء كان **الكلمة**». لو قال: "في البدء كان الابن" لأعطاك فرصة، بلفظة الابن، أن تفكِّر في [الولادة] بالألم. لأنه ـ بالنسبة لنا ـ مَنْ يلد، يلد في الزمن، ويلد بالألم؛ ولهذا السبب سبق [الإنجيلي] وقال: «في البدء كان **الكلمة**» لكي يُصحِّح مسبقًا التفسيرات غير اللائقة، ولكي يحفظ نفسك مِنْ دون سوء.

٤. «و**الكلمة** كان عند اللّه» (يو١: ١). مرة أخرى [يستعمل] الفعل «كان» مِنْ أجل المُجدِّفين القائلين إنه لم يكن. أين كان **الكلمة**؟ ليس في مكان، لأنَّ مَنْ لا يوصف لا يحتويه مكان. إذن، أين كان؟ «كان عند اللّه». فالآب ليس في مكان، ولا الابن يُحتَوى في محيط معروف وموصوف، بل كما أن الآب غير محدود، كذلك الابن غير محدود. كل ما تدركه، وما تسعى إليه بروحك تجده مليئًا باللّه، وستجد أيضًا أن وجود الابن يمتد إلى كل موضع.

«و**الكلمة** كان عند اللّه». تعجَّب من دقة كل كلمة. لم يقل: "والكلمة كان في اللّه"، بل «عند اللّه»، ليوضِّح تمايز الأقنوم. لم يقل: "كان في اللّه" حتى لا يعطي حجة في خلط الأقنومين. شرير هو تجديف أولئك الذين يعملون على خلط كل شيء والقائلين: "إن الآب والابن والروح القدس هي تسميات مختلفة لكائن واحد"![١٦]. إنه تجديف خبيث ويجب الفرار منه. وتجديف القائلين[١٧]: "إن ابن اللّه غير مشابه للآب في الجوهر" لا يَقِلّ شرًّا عن ذاك التجديف.

---

[١٦] يُشير هنا ق. باسيليوس إلى سابيليوس وأتباعه، الذين اعتقدوا أن الإله الواحد ظهر تارة كآب، وتارة كابن، وتارة أخرى كروح قدوس، وأن الأقانيم الثلاثة التي للثالوث القدوس هى مجرَّد طرق مختلفة لظهور الإله الواحد في العالم.

[١٧] يُشير هنا ق. باسيليوس إلى الأنوميين، والذين نادوا بأنه لا يوجد تماثل بين الآب والابن لا في الجوهر ولا في المشيئة. ولهذا دُعيت جماعتهم بالأنوميين «Ανόμοιοι» والتي تعني «غير مشابه- ليس مثل- مختلف عن». وفي سر

«**والكلمة** كان عند الله». بعد أن استخدم لفظة «**الكلمة**» ليبيِّن الولادة بدون ألم، أبطل ـ بدون تأخير ـ الضرر الذي يُمكن أن ينتج لنا مِنْ [جهة استعمال] لفظة «**الكلمة**». وكأنه ينتزعه مِنْ افتراء المجدفين؛ يقول: "مَنْ هو الكلمة"؟ «وكان **الكلمة** الله». أستحثك أن لا تخْتَرع للآية معانٍ مختلفة، ولا تنسب أيَّ تجديف لتعليم الروح القدس بسبب أفكارك الرديئة. لديك القرار. اخْضَعْ للرب.

«وكان **الكلمة** الله. هذا كان في البدء عند الله» (يو١: ١-٢). يُلخِّص الإنجيلي مرة أخرى ـ بكلمات قليلة ـ كل اللاهوت الذي سلَّمنا إياه عن الابن الوحيد. فمَنْ هو «هذا»؟ هذا هو **الكلمة** الإله. فبعد أن صَاغَ لك الفكرة عن الابن ـ كأنه يطبع في نفسك تعاليمًا تجهلها، ويُسكِّن المسيح **الكلمة** في قلبك ـ يقول [لك]: «هذا» [ردًا على] مَنْ هو هذا؟ لا تنظر خارجًا ساعيًا إلى إيجاد ما تعنيه كلمة «هذا»، بل ادخل إلى خبايا نفسك، والذي عرفته أنه إلهٌ كائنٌ في البدء، وأنه آتٍ **ككلمة**، وأنه كائن عند الله، هذا اعرفه وتعجَّب مِنه واسجد لسيدك، هذا الذي ثبَّتك بتعليمه. فاعلم أنه هو الكائن منذ البدء أي منذ الأزل عند الله أبيه.

احفظوا كلماتي هذه القليلة، واطبعوها كختم في ذاكرتكم. هذه ستكون لكم حصنًا منيعًا ضد هجمات المهاجمين، وستكون أيضًا حماية خلاصيَّة لأنفسكم ضد مَنْ يتآمر عليها. وإذا جاءك مَنْ يقول: "إنه وُلِدَ لأنه كان غير كائن؛ فلو كان كائنًا فكيف وُلِدَ؟" فاعْرِض عن هذا الصوت الشيطاني الذي يُعد تجديفًا على مجد الابن الوحيد، وعُدْ إلى كلمات الإنجيل: «في البدء كان **الكلمة**. و**الكلمة** كان عند الله. وكان **الكلمة** الله. هذا كان في البدء عند الله» (يو١: ١-٢). ردِّد للمرة الرابعة «كان» لتلغِ قولهم "لم يكن".

=العماد رفضوا أن يلمس الماء الجزء الأسفل مِنْ الجسم إيمانًا منهم بأنه مخلوق مِنْ روح شرير، متفقين بذلك مع ماركيون ومعترفين بثنائية الجوهر أو الخالق. (المترجم) انظر:
Nicene and Post-Nicene Fathers, Series 2, Volume 10, *St.* Ambrose*: On the duties of Clergy*, book 1, p. 20.

لتبقَ أُسُس الإيمان غير متزعزعة، وعليها سنبني ـ بمشيئة الله ـ باقي [مقالنا][١٨]؛ لأنه ليس مِنْ الممكن أن أشرح لكم كل شيء مرة واحدة، حتى لا أجعل ـ بزيادة الكلام ـ ما جمعناه بجهد، عديم الجدوى. لأنه إذا تعب العقل، يستحيل أن يجمع بسرعة كل الأمور معًا، مثل المعدة التي ـ بسبب الإفراط في الأكل ـ تعجز عن هضم ما أكلته. أتمنى لكم أن تتلذَّذوا بمذاقه [الكلام]، وتستفيدوا باستيعابه. ولأجلكم أظل مُهَيَّأً لإمدادكم بما يبقى، في ربنا يسوع المسيح الذي له المجد والقدرة إلى دهر الداهرين. آمين.

[١٨] يرى البروفيسور باسيليوس س. بسيفتوجا أن ق. باسيليوس ربما يقصد بكلمة «باقي مقالنا» بعظته التي ألقاها بعد ذلك، ألا وهي عظة «ضد السابليين، وأريوس، والأنوميين». (المترجم) انظر:
ΒΑΣ. Σ. ΨΕΥΤΟΓΚΑ & ΘΕΟΔ. Ν. ΖΗΣΗΣ, Ἅπαντα τα ἔργα Βασιλείου Καισαρείας τοῦ Μεγάλου, τόμος 7ος, *Ἕλληνες Πατέρες της Ἐκκλησίας*, (Θεσσαλονική: Βυζαντίον, 1973), 10.